الصباح الإسلامية
08
إعداد : ياسر السيد
العدد 2483 - السنة التاسعة
الجمعة 27 شعبان 1437 - الموافق 3 يونيو 2016
Friday 3 June 2016 - No.2483 - 9th Year

نماذج من إيثار الصحابة .. رضوان الله عليهم

ضرب الصحابة أروع الأمثلة الإيثار وأجملها، ومن يتأمل في قصص إيثارهم يحسب ذلك ضربا من خيال، لولا أنه منقول لنا عن طريق الأثبات، وبالأسانيد الصّحيحة الصّريحة. وإليك بعضًا من النّماذج التي تروي لنا صورًا رائعة من الإيثار:

ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه «أنّ رجلا أتى النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلا الماء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَن يضمُّ- او يضيف- هذا؟» فقال رجل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني. فقال: هيّئي طعامك، وأصبحي سراجك [1]، ونوّمي صبيانك إذا أرادوا عشاء. فهيّأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونوّمت صبيانها، ثمّ قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين [2]، فلمّا أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «ضحك الله اللّيلة أو عجب من فعالكما». فأنزل الله: ﴿ويُؤثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:9] [3].

الأنصار... إيثار منقطع النّظير:

أقبل المهاجرون إلى المدينة لا يملكون من أمر الدّنيا شيئا، قد تركوا أموالهم وما يملكون خلف ظهورهم، وأقبلوا على ما عند الله عزّ وجلّ يرجون رحمته ويخافون عذابه، فاستقبلهم الأنصار الذين تبوّؤوا الدّار، وأكرموهم أيّما إكرام، ولم يبخلوا عليهم بشيء من حطام الدّنيا... في صورة يعجز عن وصفها اللّسان، ويضعف عن تعبيرها البيان:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما قدم المهاجرون المدينة نزلوا على الأنصار في دورهم، فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم نزلنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أبذل في كثير منهم، لقد أشركونا في الهنا [4] وكفونا المؤنة، ولقد خشينا أن يكونوا ذهبوا بالأجر كلّه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلّا ما دعوتم الله لهم وأثنيتم به عليهم» [5].

وهذا عبد الرّحمن بن عوف لمّا قدم المدينة آخى النّبيّ صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الرّبيع الأنصاريّ، وعند الأنصاريّ امرأتان، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال له: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السّوق... [6].

إيثار... حتى بالحياة:

وقد وصل الحال بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن آثروا إخوانهم بحياتهم.. وهذا غاية الجود، ومنتهى البذل والعطاء.

ففي غزوة اليرموك قال عكرمة بن أبي جهل: قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواطن وأفر منكم اليوم؟! ثمّ نادى: مَن يبايع على الموت؟ فبايعه عمّه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدّام فسطاط خالد حتى انتبوا جميعًا جراحًا، وقتل منهم خلق، منهم ضرار بن الأزور -رضي الله عنهم-... فلمّا صرعوا من الجراح استسقوا ماء، فجيء إليهم بشربة ماء، فلمّا قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه. فلما دُفعت إليه نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه. فتدافعوها كلهم -من واحد إلى واحد- حتى ماتوا جميعًا ولم يشربها أحد منهم -رضي الله عنهم- أجمعين [7].

صورٌ من إيثار أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

«لما طُعن أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنهما قال لابنه عبد الله: اذهب إلى أمّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- فقل: يقرأ عمر بن الخطاب عليك السّلام، ثمّ سلها أن أُدفن مع صاحبيّ. قالت: كنت أريده لنفسي، فلأوثرنّه اليوم على نفسي. فلمّا أقبل، قال له: ما لديك؟ قال: أذنت لك يا أمير المؤمنين. قال: ما كان شيء أهمّ إليّ من ذلك المضجع، فإذا قبضت فاحملوني، ثمّ سلموا، ثمّ قل: يستأذن عمر بن الخطّاب، فإن أذنت لي فادفنوني، وإلا فردّوني إلى مقابر المسلمين» [8].

ودخل عليها مسكينٌ فسألها -وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيف- فقالت لمولاة لها: أعطيه إيّاه. فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه؟ فقالت: أعطيه إيّاه. قالت: ففعلتُ. قالت: فلمّا أمسينا أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يُهدي لنا: شاةً وكفنها. فدعتني عائشة فقالت: كلي من هذا، فهذا خيرٌ من قرصك [9].

ابن عمر نموذج آخر من نماذج الإيثار الفذّ:

مرض ابن عمر فاشتهى عنبًا -أول ما جاء العنب- فأرسلت صفيّة -يعني امرأته- فاشترت عنقودًا بدرهم، فأتبع الرّسول السّائل، فلمّا دخل به، قال السّائل: السّائل. فقال ابن عمر: أعطوه إيّاه. فأعطوه إيّاه. ثمّ أرسلت بدرهم آخر، فاشترت عنقودًا، فأتبع الرّسول السّائل، فلمّا دخل، قال السّائل: السّائل. فقال ابن عمر: أعطوه إيّاه. فأعطوه إيّاه. فأرسلت صفيّة إلى السّائل، فقالت: والله إن عُدتَ لا تُصيبُ منه خيرًا أبدًا. ثمّ أرسلت بدرهم آخر فاشترت به.

واشتهى يومًا سمكةً، وكان قد نقه من مرض فالتمست بالمدينة، فلم توجد حتّى وُجدت بعد مُدّة، واشتريت بدرهم ونصف، فشويتْ وجيء بها على رغيف، فقام سائل بالباب، فقال ابن عمر للغلام لقها برغيفها، وادفعها إليه. فأبى الغلام، فردّه وأمره بدفعها إليه، ثمّ جاء به فوضعها بين يديه، وقال: كل هنيئا -يا أبا عبد الرّحمن-، فقد أعطيته درهمًا وأخذتها. فقال: لقّها وادفعها إليه، ولا تأخذ منه الدّرهم [10].

عمر يختبر إيثار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أخذ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أربعمائة دينار، فجعلها في صرّة، ثمّ قال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجرّاح، ثمّ تلكّأ ساعة في البيت حتى تنظر ماذا يصنع بها. فذهب بها الغلام إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: وصله الله ورحمه. ثمّ قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السّبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان. حتى أنفدها، فرجع الغلام إلى عمر، فأخبره فوجده قد أعدّ مثلها لمعاذ بن جبل. وقال: اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل، وتلكّأ في البيت ساعة حتى تنظر ماذا يصنع. فذهب بها إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: رحمه الله ووصله. وقال: يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا وبيت فلان بكذا. فاطلعت امرأة معاذ فقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا. ولم يبق في الخرقة إلا دينارانِ فدحا بهما إليها. فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فسُرّ بذلك عمر، وقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض [11].

أخي وعياله أحوج

قال ابن عمر رضي الله عنه: أهدي لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة، فقال: إنّ أخي فلانًا وعياله أحوج إلى هذا منّا. فبعث به إليهم، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأوّل. فنزلت: ﴿ويُؤثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:9] [12]

إيثار... حتى للحيوان:

خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له، فنزل على نخيل قوم، وفيه غلام أسود يعمل فيه، إذ أتى الغلام بقوته فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله، ثمّ رمى إليه الثّاني والثّالث فأكله. وعبد الله ينظر إليه، فقال: يا غلام، كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت. قال: فلمَ آثرت به هذا الكلب؟! قال: ما هي بأرض كلاب، إنّه جاء من مسافة بعيدة جائعًا، فكرهت أن أشبع وهو جائع. قال: فما أنت صانع اليوم؟! قال: أطوي يومي هذا. فقال عبد الله بن جعفر: الإم على السّخاء! إنّ هذا الغلام لأسخى منّي. فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات، فأعتق الغلام ووهبه منه [13].

الزهد ... وأروع القصص

روي عن عمر : أنه حين فُتح عليه الفتوحات، قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها: البس ابن الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق، ومُرْ بصنعة الطعام تطعمه وتطعم من حضر. فقال عمر: يا حفصة، الست تعلمين ان أعلم النّاس بحال الرجل أهل بيته؟ فقالت: بلى.

قال: ناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاءوا عشية، ولا شبعوا عشية إلا جاءوا غدوة؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن النبي لبث في النبوة كذا كذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله قُربتم إليه يومًا طعامًا على مائدة فيها ارتفاع فشقّ ذلك عليه حتى تغير لونه، ثم أمر بالمائدة فرفعت. ووضع الطعام على دون ذلك، أو وضع على الأرض؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله كان لا ينام على عباءة مثنية فثنيت له ليلة أربع طاقات فنام عليها، فلما استيقظ قال: «مَنَعْتُمُوني قيامَ اللّيلة بهذه العَبَاءَة، ائْتُوها بالتي كنا كُنّتم تلْبَسُونها»؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوبًا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صنعت له امرأة من بني ظفر كساءين إزارًا، وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره، وقد عقد طرفيه إلى عنقه، فصلى كذلك؟

فما زال يقول حتى ابكاها، وبكى عمر وانتحب، حتى فلنذا أن نفسه ستخرج[1].

- روي أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها، وأرسل إلى الفضيل بن عياض بعشرة آلاف فلم يقبلها، فقال له بنوه: قد قبل الفقهاء، وأنت ترد على حائنك هذا. فبكى الفضيل وقال: اتدرون ما مثلي ومثلكم؟! كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها، فلما هرمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلدها، كذلك أنتم اردتم ذبحي على كبر سني، موتوا يا أهلي جوعًا خير لكم من أن تذبحوا فضيلا![2].

- قالت امرأة أبي حازم لأبي حازم: هذا الشتاء قد هجم علينا، ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب. فقال لها أبو حازم: من هذا كله بد، ولكن لا بد لنا من الموت ثم البعث، ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة او النار[3].

- رؤي فضالة بن عبيد وهو والي مصر أشعث حافيًا فقيل له: انت الأمير وتفعل هذا؟ فقال: نهانا رسول الله عن الإرفاه[4]، وأمرنا ان نحتقي أحيانا[5].

- دخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف. فقال له قتيبة: ما دعاك إلى مدرعة الصوف؟ فسكت، فقال: اكلمك ولا تجيبني؟! قال: أكره أن أقول زهدا فازكي نفسي، أو فقرا فاشكو ربي[6].

- دخل رجل على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذر، ما أرى في بيتك متاعا ولا غير ذلك من الأثاث. فقال: إن لنا بيتا نوجه إليه مصالح متاعنا. فقال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت ههنا. فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه[7].

- قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما، قال له: ما معك من الدنيا؟ قال: معي عصاي اتوكأ بها، واقتل بها حية إن لقيتها، ومعي جرابي أحمل فيه طعامي، ومعي قصعتي آكل فيها وأغسل رأسي وثوبي، ومعي مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهوري للصلاة. فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي. فقال عمر: صدقت رحمك الله[8].

- مر أبو تراب النخشبي بمزين، فقال له: تحلق رأسي لله ؟

فقال له: اجلس. فجلس، فقيما يحلق رأسه مرّ به أمير من أهل بلده، فسأل حاشيته، فقال لهم: أليس هذا أبا تراب؟ قالوا: نعم.

فقال: أي شيء معكم من الدنانير؟ فقال له رجل من خاصّته: معي خريطة فيها ألف دينار.

فقال: إذا قام فأعطه، واعتذر إليه، وقل له: لم يكن معنا غير هذه. فجاء الغلام إليه، فقال له: إن الأمير يقرأ عليك السلام، وقال لك: ما حضر معنا غير هذه الدنانير.

فقال له: ادفعها إلى المزين. فقال المزين: أي شيء أعمل بها؟

فقال: خذها. فقال: لا والله ولو أنها ألفا دينار ما أخذتها.

فقال له أبو تراب: مر إليه، فقل له: إن المزين ما أخذها، فخذها أنت فاصرفها في مهماتك[9].

مسجد أحمد بن طولون ... تحفة معمارية رائعة

يعد جامع أحمد بن طولون نموذجًا فريدًا في تاريخ العمارة الإسلامية، ودرة في تاريخ المساجد الأثرية، ودليلا قويا على ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية في العصر الطولوني.

أحمد بن طولون

تعتبر شخصية أحمد بن طولون من الشخصيات الهامة في تاريخ مصر الإسلامي، إذ تتمثل فيها النقلة التي انتقلتها مصر من ولاية تابعة للخلافة العباسية إلى دولة ذات استقلال ذاتي.

ولد احمد بن طولون بسامراء وقيل ببغداد سنة 220هـ - 835م(1)، ونشأ أحمد بن طولون على مذهب جميل، وحفظ القرآن واتقنه، وكان من نشأته اطيب الناس صوتا به، مع كثرة الدرس وطلب العلم؛ وتفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، ونشأ في الفقه والصلاح والدين والجود حتى صار له في الدنيا الذكر الجميل(2).

دخل مصر يوم الخميس لسبع بقين من رمضان سنة 254هـ - 868م(3)، وكانت ولاية أحمد بن طولون على مصر أول الأمر قاصرة على القسطاط أما أمر الخراج فكان موكولاً إلى ابن المدبر، فما زال بحسن سياسته يوسع في نفوذه حتى شمل سلطانه مصر جميعها وتولى أمر الخراج، وامتد نفوذه إلى الشام وبرقة وأسس الدولة الطولونية التي حكمت مصر من سنة 254هـ إلى 292 هـ - 868م إلى 905م وتوفى سنة 270 هـ- 884م(4).

جامع أحمد بن طولون

يعد جامع أحمد بن طولون ثالث الجوامع بمصر الإسلامية بعد جامع عمرو بن العاص، وجامع العسكر؛ الذي زال بزوال مدينة العسكر التي كانت تشغل حيّ زين العابدين «المديح حاليًا».

ويعد جامع احمد بن طولون هو المسجد الوحيد الباقي في مصر، الذي لم تتغير معالمه، وقد تغيرت معظم معالم مسجد عمرو بن العاص، وكذلك جامع الأزهر الشريف بمرور العصور. ويتميز هذا الجامع بزخارفه الإسلامية البديعة التي تجعله أحد النماذج النادرة للفن الإسلامي والعمارة الإسلامية.

وفي عهد الأيوبيين أصبح جامع ابن طولون جامعة تدرس فيه المذاهب الفقهية الأربعة، وكذلك الحديث والطب إلى جانب تعليم الأيتام.

وقد شيّد أحمد بن طولون مسجده على مساحة كبيرة تبلغ ستة أفدنة ونصف فوق جبل يشكر -بوسط مدينته الجديدة القطائع- وقد عرف بهذا الإسم نسبة إلى قبيلة يشكر بن جزيل من عرب الشام.

وقد بنى أحمد بن طولون مسجده بعد أن شكا الناس من ضيق جامع العسكر، فبدأ البناء عام 263هـ - 876م، واكتمل بناؤه عام 265هـ - 879م وفقا لما جاء باللوحة المثبتة على إحدى دعامات إيوان القبلة بالمسجد(5).

وصف جامع أحمد بن طولون

طول جامع احمد بن طولون 138 مترًا، وعرضه 118 مترًا تقريبًا، يحيط به من ثلاثة جهات -الشمالية والغربية والجنوبية- ثلاث زيادات عرض كل منها 19 مترًا على وجه التقريب، مكوّنين مع الجامع مربعا طول ضلعه 162 مترًا، ويتوسط الزيادة الغربية الفريدة في نوعها مئذنة الجامع، والتي لا توجد مثيلها في مآذن القاهرة، وهي ملوية على طراز ملوية جامع سامراء بالعراق، ويبلغ ارتفاع المئذنة عن سطح الأرض (40.44م)، فيما يربط المئذنة بحائط المسجد الشمالي الغربي قنطرة على عقدين من نوع «حدوة» الفرس، والغلب الظن أنها بنيت على أساسات المئذنة الأصلية للجامع، ذلك لأنّ هذه المئذنة بنيت في العهد المملوكي، ولعلها قد بنيت على طراز مئذنة جامع سامراء، وهي مربعة من الأسفل، ثم أسطوانية وتنتهي مثمنة تعلوها قبة وبلغ ارتفاعها أربعين مترًا.

وجهات الجامع الأربع تمتاز بالبساطة، وليس بها من انواع الزخرف سوى صف من الشبابيك المفرغة المتنوعة الأشكال والمختلفة العهود، وأمام كل باب من أبواب الجامع، يوجد باب في السور الزيادة -الخارجي- بالإضافة إلى باب صغير فتح في جدار القبلة، وقد كان يؤدي إلى دار الإمارة التي أنشأها أحمد بن طولون في شرق الجامع.

ويتوسط جدار القبلة المحراب الكبير الذي لم يبق من معالمه الأصلية سوى تجويفه والأعمدة الرخامية التي تكتنفه، كما توجد بأعلى الجزء الواقع أمام المحراب قبة صغيرة من الخشب، تحيطها شبابيك جصية مفرغة مشغولة بالزجاج الملون، وإلى جانب المحراب يوجد منبر مصنوع من الخشب على هيئة أشكال هندسية تحصر بينها حشوات محلاة بزخارف بارزة، ويعتبر هذا المنبر من أقدم منابر مساجد القاهرة، بعد منبر المسجد الموجود بدير القديسة كاترين بسيناء والذي أقامه «الأفضل شاهنشاه» في أيام الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله سنة 500 هـ ومنبر المسجد العتيق بفوص الذي أمر بعمله الصالح طلائع سنة 550 هـ أما الزخارف الجصية المتعددة، والزخارف التي استخدمت في الأبواب، فيلاحظ تأثرها الكبير بجامع «سامراء»، حيث بدأت الأسرة الطولونية هناك قبل أن تنشئ دولتها في مصر.

كما يوجد منبر آخر يعمله السلطان لاجين أيضا، وحل محل المنبر الأصلي، وهو مصنوع من الخشب، وهذا المنبر يعتبر من أقدم منابر مساجد القاهرة، فيعتبر من حيث القدم ثالث المنابر القائمة.

ويتميز جامع أحمد بن طولون أن بناءه مقاوم للنيران ولمياه الفيضان، وكان هذا طلب ابن طولون من المهندس الذي أنشاه، وعلى الرغم من أنّ تخطيط الجامع يتبع النظام التقليدي للمساجد «الجامعة»؛ حيث يتكون من صحن أوسط مكشوف يحيط به أربع ظلات أكبرها ظلة القبلة، إلا انه ينفرد بمئذنة فريدة تعد من العناصر المعمارية المهمة والأساسية للمساجد وتكاد تكون الوحيدة في العالم الآن على هذا الشكل بعد أن تداعت توأمتها في سامراء ببغداد مؤخرًا أثناء القصف الأميركي للمدينة، ويقول المقريزي أن ابن طولون بنى منارة هذا الجامع على صفة جامع منارة سامراء.

ويبلغ عدد مداخل جامع بن طولون 19 مدخلا، إلا أن المدخل الرئيسي حاليًا هو المدخل المجاور لمتحف جاير أندرسون، حيث يوجد أعلاه لوحة تجديد ترجع إلى عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله.

ولمسجد أحمد بن طولون أهمية بالغة ترجع إلى أنه المسجد الوحيد في مصر بل العالم الذي لم يتم إليه إضافات أو توسعات له منذ إنشائه، وحتى الآن ما زال محتفظا بعناصره الزخرفية والمعمارية رغم مساحته الكبيرة(6).

ترميم جامع أحمد بن طولون

السلطان حسام الدين «لاجين» المملوكي

امتدت يد الترميم والإصلاح إلى جامع ابن طولون في العديد من الفترات، إلا أن أهمها، كان ذلك الذي قام به السلطان حسام الدين «لاجين» المملوكي، فقد أنشأ القبة المقامة وسط الصحن عوضا عن القبة التي شيدها الخليفة الفاطمي العزيز بالله والتي كان قد اقامها بدلا من القبة الأصلية التي احترقت سنة 376هـ وللسلطان المملوكي «لاجين» قصة مع المسجد رواها السيوطي في كتابه التاريخي «حسن المحاضرة في اخبار مصر القاهرة»، مفادها أنّ لاجين كان أحد المماليك الذين قاموا بقتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون، ومن ثم أخذ مماليك وحلفاء الأشرف في البحث عن لاجين ليثاروا منه، فما كان من «لاجين» إلا أن احتمى في منارة هذا الجامع الذي كان قد هجره الناس وتحول إلى مربط للخيل ومكانا للمسافرين، ونذر بتجديد وإعمار المسجد مرة أخرى إن مرت هذه المحنة بسلام، وتدور الأيام و يتولى لاجين عرش مصر، ولقب «بالمنصور»، وكان أول ما قام به هو الوفاء بنذره، فأعاد إعمار الجامع بعد خرابه بأكثر من 400 عام، وجعل فيه كتاب لتعليم الأطفال وزرع حوله البساتين، وأزال الخراب من حوله متكلفا مالا جمًا(7).

كما عين السلطان لاجين مجموعة من الصناع، وأمر بصناعة ساعة فيه، فجعلت قبة فيها طيقان صغيرة على عدد ساعات الليل والنهار وفتحة، فإذا مرت ساعة انغلقت الطاقة التي هي لتلك الساعة وهكذا، ثم تعود كل مرة ثانية.

في العصر الحديث

وفي القرن الثاني عشر الهجري كان هذا الجامع يستعمل كمصنع للأحزمة الصوفية، كما استعمل في منتصف القرن الثامن عشر ملجأ للعجزة، ثم آلت لجنة حفظ الآثار العربية سنة 1882م، وأخذت في إصلاحه وترميمه، إلى أن كانت سنة 1918م، حين أمر الملك فؤاد الأول بإعداد مشروع لإصلاحه إصلاحًا شاملا، وتخلية ما حوله من الأبنية، راصدًا لذلك 40 ألف جنيه، أنفقت في تقويم ما تداعى من بنائه، وتجديد السقف.

أما آخر محاولة تم فيها ترميم المسجد فكانت في نهاية التسعينات حيث قامت وزارة الثقافة المصرية بترميم زخارفه وافتتاحه في عام 2005م كواحد من بين 38 مسجدًا تم ترميمها ضمن مشروع القاهرة التاريخي، وقد أعلنت وزارة الثقافة أن إعادة ترميم الجامع تجاوزت تكلفتها 12 مليون جنيه(8).